

ال التربية الإسلامية - سبل الوصول وعلامات القبول - الدرس (١٧-٧٠) : رعاية الأسباب
والأخذ بها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠١-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجا من ظلمات الجهل والوهم، إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات.

من لوازم العبودية لله أن يأخذ الإنسان بالأسباب :

أيها الأخوة الكرام، مع موضوع جديد من موضوعات: "سبل الوصول وعلامات القبول"، هذا الموضوع عنوانه: رعاية الأسباب، وهذه التسمية من عند ابن القيم رحمة الله تعالى، ولا يبلغ إذا قلت: إن مشكلة المسلمين اليوم الأولى عدم الأخذ بهذا القانون، من لوازم عبوديتك الله عز وجل أن تتحترم قوانين الله عز وجل في كل شيء، وأن



تتجلى عبوديتك لله في أخذك بالأسباب

تأخذ بها، هذه هي العبودية لله عز وجل، فالله عز وجل خلق هذا الكون وفق مبدأ السبيبة:



﴿إِنَّا مَكَّنَنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتَبْعَثُ سَبَبًا﴾
[سورة الكهف]

فالأخذ بالأسباب جزء من الدين، وعدم الأخذ بها معصية كبيرة، ويمكن أن يعزى تخلف المسلمين، وانهيار حرماتهم، واحتلال أراضيهم، وقتل أبنائهم، ونهب ثرواتهم، إلى أن أعداءهم أخذوا بالأسباب وهم غفلوا عنها، وتواكلوا على الله، فلذلك من لوازم العبودية لله أن تأخذ

بالأسباب.

مثلاً ومن أقرب الأمثلة الابن مرض، يجب أن تأخذه إلى أقرب طبيب، وأن تشتري أفضل الدواء، وأن تشرف بنفسك على إعطاء الدواء، وبعده توجه من أعماق أعماقك إلى الله عز وجل تسأله الشفاء، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

أي عمل يسبقه تصور فإذا صَحَّ التصور صَحَّ العمل وإذا فسَدَ التصور فسَدَ العمل . :

أيها الأخوة، أي عمل يسبقه تصور، فالسارق لماذا أقدم على السرقة؟ لأنه تصور أنها كسبٌ كبير بجهدٍ قليل، وغاب عنه العقاب والسجن، لذلك التصور يسبق العمل، فإذا صَحَّ التصور صَحَّ العمل، وإذا فسَدَ التصور فسَدَ العمل.

أوضح الأمثلة: تركب مركبتك، وفي لوحة البيانات تألق ضوء أحمر، إذا فهمت هذا التألق هو تألقٌ تزييني وهو في الحقيقة تألق تحذيري، نقص الزيت في المحرك ، فإذا فهمت أن هذا التألق تألقٌ تزييني، وتتابعت السير، احترق المحرك، وتوقفت المركبة، وتعطلت الرحلة، وفانك الهدف، ودفعت مبلغًا فلكيًّا لإصلاح المحرك، أما إذا فهمت أن هذا التألق تألق تحذيري، فأوقفت المحرك، وأضفت الزيت، وسلم المحرك، وتتابعت السير، وحققت الهدف، هذا المثل على بساطته يوضح كل شيء، الخطأ بالفهم، الخطأ بالتصور:



إذا فسَدَ التصور فسَدَ العمل

﴿ قُلْ هُلْ نُنَيِّكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ وَحْقَتَ الْهُدُفُ، هُذَا الْمَثُلُ عَلَى بِسَاطَتِهِ يَوْضُعُ كُلَّ شَيْءٍ، الْخَطَا بِالْفَهْمِ، الْخَطَا بِالْتَّصُورِ: ﴾

يُحْسِنُونَ صُنْعًا

[سورة الكهف]

أي لمجرد أن تتصور الأمة أن خلاصها أن تتبطح لأمةٍ قوية، هذا خطأ في التصور، الأمة القوية تنزعها، وتنتهي حرماتها، وتأخذ أرضها وثروتها، أما لو تصورت أن النصر من عند الله وحده، وأن هذا النصر لمن ينصر دين الله، فاصطلحت مع الله، ونصرت دينه، لوجدت العجب العجاب، لوجدت أن هذا الإيمان، وهذا الصلح مع الله، قلب كل المعادلات، وألغى كل التفوق:

﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَنْتَقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾

[سورة آل عمران الآية: ١٢٠]

مثل آخر: شركة سيارات كل شهر ينفجر بعجلات السيارات مئة عجلة، مشكلة كبيرة، وكلما انفجرت العجلة مع سائق استدعاه المدير وعاقبه، شركة أخرى بالشهر كله تتفجر عجلة أو عجلتان، هنا في مئة، الخطأ أن المدير أعطى تعليمات أن يكون الضغط أربعين وهو يجب أن يكون ثلثين، والوقت صيف، فإذا أسرع السائق تمدد الهواء، وانفجرت العجلة، الخطأ في التصور، في تصور القيادة، فحينما يخطئ الإنسان في التصور يدفع الثمن.

مشكلة المسلمين اليوم في تصوراتهم الخاطئة :



لذلك النقطة الأولى: أن الموازنة بين عهد الصحابة وهذا العهد، ما قولهن جامعٍ أو بمسجدٍ أرضه رمل، وسقفه من سعف النخيل، ورایات المسلمين في الأفق؟ في الصين شرقاً، وفي مشارف باريس غرباً، والآن هناك مساجد تكلفتها تقدر بمليار أو بملياري دولار، مظاهر صارخة إسلامية، مؤتمرات، مؤلفات، كتب، محاضرات، أشرطة، زخارف، وخمس دول إسلامية محتلة، والثروات بيد أعدائنا، والعالم كله يحاربنا، لماذا؟ لماذا هؤلاء الصحابة رفاقت رايهم في الخافقين، وكلمتهم هي العليا، وأمرهم بيدهم؟ ولماذا المسلمين بهذا التخاذل، وهذا الضعف، وهذا الانبطاح، لماذا؟ لأن الصحابة الكرام كان تصورهم صحيحاً، ونحن تصورنا الإسلام تصوراً خاطئاً، هنا المشكلة في التصور الخاطئ.

التوحيد يصحح التصور :

أيها الأخوة، التوحيد يصحح التصور، التوحيد أن ترى أن الأمر بيد الله، هو الناصر، هو القوي، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل، هو الموفق، هو الناصر، فالتوحيد يصحح التصور، والشرك بالله يبعدك عن التصور الصحيح، لذلك قال تعالى:



رعاية الأسباب والأخذ بها

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

[سورة يوسف]

لمجرد أن تعتمد على مالك وقعت في الشرك، أن تعتمد على قوي ليس مؤمناً ترى الخلاص عنده فهذا شرك، لمجرد أن تعتمد على ذكائك فهذا شرك.

سأروي لكم قصة عن طبيب في أمريكا، رفع جدار الجري - الجري اليومي - وكان يجري في اليوم عشرين كيلو متر، وعمل ندوات، وألقى محاضرات، هو أستاذ في الجامعة، وهو طبيب قلب أيضاً، الجري كل شيء، وكلامه صحيح، لكنه مات وهو يجري في سن مبكرة جداً، عندما تعتمد على مالك وليس على الله فقد وقعت في الشرك يا ترى هل كلامه خطأ؟ لا، لكنه اعتمد على الجري ونسى الله.



أي شيءٍ تعتمد عليه وتتسى الله، الله عز وجل يؤذبك، فإن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، أي لو فرضنا أن الخطأ في التصور لا ينعكس على السلوك تصور ما شئت، لو تصورنا أن الخطأ في العقيدة لا علاقة له بالسلوك اعتقد ما شئت، ولكن لأن كل خطأ في العقيدة، ولأن كل خطأ في التصور، ينعكس على السلوك قطعاً، لذلك لا يقبل الله العقيدة تقليداً ولو أنها صحيحة، لقوله تعالى:

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

[سورة محمد الآية: ١٩]

ما قال: فقل،

﴿ فَاعْلَمْ ﴾

الله عز وجل لا يقبل العقيدة من المسلم إلا عن بحثٍ ودرسٍ وإيمانٍ :

لا يقبل الله العقيدة من المسلم إلا عن بحثٍ ودرسٍ، وإيمانٍ، وأما إن كانت تقليداً فلا تقبل، والدليل: لو أن الله قبل التقليد في العقيدة لكان كل الطوائف المنحرفة عند الله ناجية، أفراد هذه



الطائفة ما ذنبهم؟ قال لهم زعيمهم: كذا ف قالوا: كذا، لا العقيدة لا تُقبل تقليداً، لابد من التحقيق،
لقوله تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾



لابد أن تأخذ بالأسباب و تعالج آفاتك الزراعية ولا يكفي الدعاء

الآن بعض الأمثلة: الابن مرض، الدعاء لا يكفي، لابد من أن تأخذ إلى الطبيب، و يجب أن يكون الطبيب جيداً، و تختار الدواء الجيد، وأن تشرف بنفسك على معالجته، وفي أعماق أعماق قلبك تقول: يا رب أنت الشافي، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء.

عندك ابن بالرياضيات مقصري، يا بني ادع الله أن ينجحك، خطأ، يجب أن تأتي له بأستاذ خاص ليعلمه بعض الموضوعات التي صعبت عليه، وبعدها تقول له: يا بني ادع الله أن ينجحك. هناك آفة زراعية، يا رب تجيئنا، لا، يجب أن تأتي بالدواء، وأن تستخدم الدواء وفق تعليمات المهندس الزراعي، وبعدها تقول: يارب سلم هذا المحصول. بضاعة كاسدة، هناك خطأ بشرائها، و خطأ بالسعر، و خطأ بالتسويق.

أوضح مثل عندما رأى سيدنا عمر أنساً في الحج يتکفون الناس، قال: من أنت؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كنتم، المتوكل من أقوى حبة في الأرض ثم توكل على الله وأوضح مثل أن سيدنا عمر لما رأى جملأً أجرب، فسأل صاحبه: يا أخا العرب ما تفعل به؟ قال: أدعوا الله أن يشفيه، قال: يا أخي هلا جلت مع الدعاء قطراناً.



أعداؤنا لا ينامون في الليل وهم يعملون ونحن نكتفي
بالدعاء عليهم

هذه مشكلة المسلمين الأولى، يا رب تنتقم منهم، يا رب عليك بهم فإنهم لا يعجزونك، يا رب اجعل تدميرهم في تدبيرهم، وأنت نائم، لا تستعد، لا تأخذ بالأسباب، هم لا ينامون الليل يعملون، لن ننتصر عليهم إلا إذا أخذنا بالأسباب، وإلا إذا أخذنا بهذه الآية:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٦٠]

هناك خطأ بالتصور، أن الله ينصرنا لكن ما نصرنا، الله عز وجل بيده كل شيء لكن أمرك أن تأخذ بالأسباب.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُو أَعْضُكُمْ بِعَيْنِهِمْ﴾

[سورة محمد الآية: ٤]

القضاء والقدر لا يغفر من المسؤولية :

أيها الأخوة، كنت مرة في مؤتمر في ماليزيا، فقال أحد الخطباء: ما دام المسلمون يُعزّون أخطاءهم إلى القدر فلن يتقدموا، ولن ينتصروا، أي قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾

[سورة النور الآية: ١١]

الإفك الحديث الذي لا يحتمل عن السيدة عائشة:

﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًا لَكُمْ بِلْ هُوَ خَيْرٌ﴾

[سورة النور الآية: ١١]

يا رب كيف هو خير؟ فرز المؤمنين، الصادقون أحسنوا الظن برسول الله، وزوجته، والمنافقون روجوا هذا الخبر،

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًا لَكُمْ بِلْ هُوَ خَيْرٌ﴾

بعدها يقول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِي تَوَلَّ كَبِيرًا مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

[سورة النور]



القضاء والقدر لا يغفر من المسؤولية،
ما دام المسلمون يُعزّون أخطاءهم إلى
القدر فلن يتقدموا، بلاد محتلة، هكذا
يريد الله، هذا ترتيب سيدك، ليس بيدهنا
شيء، لا، الله أمرك أن تقاوم، هو
معك، كلما ارتكب خطأ فاحش والنتيجة
مؤلمة جداً، يقول: هذا ترتيب ربى،
هكذا يريد الله، ليس بيدهنا شيء، نحن
عيid إحسان ولسنا عبيid امتحان، الله

يسلم، هذا الموقف الغلط، الله أمرك أن تقاوم، أمرك أن تجاهد، أنا مضطر أن أسمي ما يصيب

المسلمين بسبب أخطائهم الفادحة أن هذا جزاء التقصير، هذه التسمية الصحيحة، لأن القضاء والقدر شيء، وجاء التقصير شيء آخر.

طالب لم يدرس إطلاقاً، فلم ينجح، سبحان الله! الله لم يرد لي النجاح، أيضاً الأمر بيد الله، أنت لم تدرس، أما لو طالب استنفذ جهده في الدراسة، وقبل الامتحان أصابه مرضٌ حال بينه وبين الامتحان، فهذا قضاء وقدر، الفرق بين القضاء والقدر وجاء التقصير، القضاء والقدر قوة قاهرة، أما جزاء التقصير هناك قوانين، لم تدرس إذاً لن تنجح، لم تحسن شراء البضاعة إذاً البضاعة كاسدة.

لذلك إذا أردت أن تتぬمي إلى أمةٍ كانت فيما مضى قائدةً للأمم بعد أن كانت راعيةً للغنم ينبغي أن تأخذ بالأسباب، من قدوتك؟ النبي عليه الصلاة والسلام.

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب و يتوكى على رب الأرباب :

أخواننا الكرام، هل تعتقدون أن على وجه الأرض إنساناً أكرم على الله من رسول الله؟ ومع ذلك لما هاجر أخذ بكل الأسباب، توجه ساحلاً، قبع في غار ثور، كلف إنساناً ليمحو الآثار، إنسان يأتي بالأخبار، إنسان يأتي بالزاد، استأجر دليلاً رجح فيه الكفاءة عود نفسك أن تتهم نفسك ولا تعزو أخطاءك إلى القضاء والقدر والخبرة على الولاء، كان مشركاً، أخذ بكل الأسباب، فإذا كان سيد الخلق وحبيب الحق متأدباً مع الله، فأخذ بالأسباب كلها، هل يعقل ألا نعد لعدونا شيئاً وأن ننام في رابعة النهار؟ ثم نقول: يا رب عليك بهم لا يعجزونك، لا، هذا خطأ يسمى في المصطلح المعاصر إستراتيجي، خطأ إستراتيجي.



وهذا الدرس متعلق بعملك، أخي لا يوجد بيع، وهناك أناس مع هذا الكساد يبيعون لأنهم أخذوا بالأسباب، اختار بضاعة جيدة، اختار سعراً مناسباً، العرض مناسب، التسهيلات مناسبة، عود نفسك أن تتهم نفسك دائماً، لا تعزز خطأك إلى القضاء والقدر، اعزّ خطأك إليك فتتجه، البطولة أن تواجه المشكلة لا أن تقفز عليها، ضعاف النفوس، ضعاف الإيمان، يقفزون على مشكلاتهم، ويعزروها إلى القضاء والقدر.

على كل إنسان أن يصح تصوراته لأن التطرف سهل :

أيها الأخوة، وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين:

((فقال المقصي عليه لما أذير: حسبي الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

الإنسان هو الإنسان، حكم بين شخصين، والذي عليه الحق:

((فقال المقصي عليه لما أذير: حسبي الله ونعم الوكيل))

فغضب النبي الكريم فقال له:

((إن الله يلوم على العجز))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

أنت مقصر:

((ولكن عليك بالكييس، فإذا غلبك أمر

، فقل حسبي الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

ما درست، ما نجحت، قال:

((حسبي الله ونعم الوكيل))

لا، قل: لم أنجح لأنني لم أدرس، أما

إذا جاء مرضٌ حال بينك وبين الموقف الوسطي يحتاج إلى دقة بالغة

الامتحان تقول حينئذ:

((حسبي الله ونعم الوكيل))

يجب أن نصح تصوراتنا.

أخواننا الكرام، دائماً التطرف سهل، أي أن تسيب أولادك بلا متابعة، بلا تأديب، بلا محاسبة، سهلة جداً، وإذا أخطأوا الواحد أن تسحقه بالضرب أيضاً سهلة، أما البطولة أن يحبك ابنك بقدر ما يخافك، الموقف الوسطي صعب يحتاج دقة بالغة، يحتاج إلى حنكة، إلى خبرة، دائماً وأبداً التطرف سهل، ألا تأخذ بالأسباب أصلاً قضية سهلة، إنسان محترم جداً، سافر إلى الشمال بسيارة لم يكشف عنها إطلاقاً، مات هو وأهله، فعليك أن تراجع العجلات، تراجع الأجهزة، تراجع المركبة، لم يراجع فيعزى هذا إلى خطئه، أما راجعها مراجعة تامة وصار هناك حادث فهذا قضاء وقدر.

أيها الأخوة، شيء آخر: سينما عمر
كان في الشام، فعلم أن فيها طاعوناً،
وقف على أبواب دمشق، فرجع ولم
يدخلها مشفقاً على أصحاب رسول الله،
فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين
أتف من قضاء الله؟ فقال سيدنا عمر:
لو غيرك قالها يا أبو عبيدة! نعم أفر من
قدر الله إلى قدر الله، الطاعون قدر الله،
والشفاء قدر الله، فأنا أفر من قدر الله



توافق السنة مع أحدث نظريات الوقاية من الأمراض

إلى قدر الله، ثم نادى في الجيش، هل فيكم من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً في
الطاعون؟ فقال أسامة بن زيد: أنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
((إن هذا الوجع رجُزٌ أو عذابٌ، عذبُ أَنَّاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا كَانَ بِأَرْضِ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوهَا، وَإِذَا بَلَغْتُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا))

[أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص]

أحدث نظرية في الوقاية، هناك إنسان حامل المرض ليس مريضاً، فإذا كان إنسان بأرض فيها
طاعون، أو فيها مرض عossal، قد يحمله وليس مصاباً به، فإذا خرج من هذا البلد نقل هذا
المرض إلى مكان آخر، هذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، قال له: نعم أنا أفر من
قدر الله إلى قدر الله، وفي حديث قالوا يا رسول الله:
((أَرَأَيْتَ رُقَّاهَ نَسْتَرِقِي بِهَا، وَدَوَاءَ نَتَدَاوِي بِهِ، وَتُقَآةَ نَتَقَيِّيْهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدْرِ اللهِ شَيْئاً؟ قَالَ: هُوَ
مِنْ قَدْرِ اللهِ))

[أخرجه الترمذى عن يعمر السعدي]

هذا الفهم الصحيح، أي كل القصد أن هذا القعود، والاستسلام، والتأمل، من دون حركة، من دون
استعداد، رب ابنك، نور ابنك، اضبط بيتك، أتقن عملك، حتى تقدم لهذه الأمة شيئاً.
إذاً فهمنا للقضاء والقدر يجب أن يكون فهماً آخر، طبيب بالمستشفى، في قسم الإسعاف، جاء
مريض، لأنه كان يدبر حديثاً مع الممرضة، أو يلعب بالنرد، مات المريض، قال: سبحان الله!
مات بأجله، لا، يحاسب على هذا التقصير، لا يجوز أن نعتذر بالقضاء والقدر أبداً، تقول: هذا
ترتيب الله، هو التقصير منك، لذلك قالوا: من طب ولم يعلم منه طب فهو ضامن، يدفع الدية، من
طب ولم يعهد منه طب فهو ضامن.

أيها الأخوة، لهذا الموضوع تتمة إن شاء الله، لكن أنا أراه من أخطر الموضوعات التي يحتاجها المسلمين في هذا الوقت الصعب، لأن أعداءنا يأخذون بالأسباب، ونحن نهملها، ولن نستطيع أن ننتصر إذا قصرنا بأمرٍ قرآني هو قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾

[سورة الأنفال الآية: ٦٠]

والحمد لله رب العالمين